

## في الجدل حول "تكفير" التكفيريين

2014-12-23 عريب الرنتاوي

ما أن يحدثك مسؤول حكومي عربي، أو "عالم" دين من المسحويين على الإسلام الوسطي المعتدل عن "داعش" وأخواتها، حتى يُمطر بكوابل من التأكيدات بأن هؤلاء ليسوا مسلمين إلا اسماً، وأن ما يدعونه ليس من الإسلام في شيء، وإن إسلامنا براء مما يقولون ويفعلون، وأنهم يلحقون الأذى بالإسلام ويسئون للمسلمين أكثر من غيرهم، وأنهم "فئة ضالة" و"نبت شيطاني" و"عناصر وافدة" و"بضاعة مستوردة"، إلى غير ذلك كثير مما تسعف اللغة والكلمات به أصحابها.

الساسة يحجمون في العادة عن "التكفير"، يتركون المهمة للناطقين باسمهم من رجال الدين و"علمائه"، مع أن قلة منهم ذهبت في هذا الاتجاه مؤخراً... لكن الغريب في الأمر، أن هذه المرجعيات الدينية بعلمائها وفقهائها، تحجم عن "تكفير" الجماعات الإرهابية، بل وتصر على القول بأنهم "مسلمون"، نختلف معهم في الاجتهاد، وهم في أسوأ الأحوال، "ضالون" عن سواء السبيل، وبصورة تسمح دائماً بالنظر إلى ما يفعلونه بوصفه "جنحة" لا "جناية" كما يقال بلغة القانون.

المدرستان الرئيسيان في حركات الإسلام السياسي المعاصر: السلفية والإخوانية، أحجمتا حتى الآن حتى عن وصف "داعش" بالإرهاب، وبعضهم ومن بينهم الإخوان، يحرص أتم الحرص على إدماج النصر في قائمة "ثوار سوريا"، بل أن ثمة الكثير من التهليل والتكبير، حتى لا نقول التطويل والتزوير، قد تصدر المواقع الالكترونية لهذه الجماعات وصحفها، حين أعلنت "النصرة" سيطرتها على معسكري وادي الضيف والحامدية في الريف الشمالي لإدلب، جل ما يصدر عن هذه الحركات، بيانات إدانة مقتضبة وخجولة لسلوك "داعش" عندما يبلغ السيل الزبي، وحين تصبح الجرائم المقترفة من قبلها، أكبر من أن تحجب بغربال، وغالباً تحت ضغط الرأي العام والحكومات الغاضب... والأهم من كل هذا وذاك، أن لا جدال فكرياً/فقهياً مع هذه الجماعات، ولا محاولات لـ"تظهير" موقف إسلامي مغاير لما تقوله وتفعله، إذ ما زال قادتها وشيوخها، يرددون ذات المفاهيم التي أكل عليها الدهر وشرب، عموميات ومواقف ضبابية لا تسمن ولا تغني من جوع.

السلفيون في هذا الشأن، مدارس ومذاهب، بعضهم يرى في "داعش" أبناء عمومته في الفقه والدين والمذهب، ينبري للدفاع عنها والدعاء لها، وفي أسوأ الحالات، لا نرى أزيد من "الدعاء" بأن يوفق الله المسلمين ويسدد على طريق الخير خطاهم، فإن أصابوا لهم أجرين، وإن أخطأوا لهم أجر المجتهد، والله أعلم بالنوايا... قلة قليلة تذهب أبعد من ذلك في انتقاد الجماعات الضالة، وغالباً لخروجها على "ولي الأمر"... وثمة كثرة كثيرة، ترفض حتى مجرد إصدار موقف مُندد بجريمة يشاور أو جرائم "بوكو حرام" أو فظائع "داعش" وغيرها.

الأزهر الشريف، الذي يقود مدرسة الوسطية والاعتدال في الإسلام، ويطلق الحملة تلو الأخرى ضد التطرف والغلو، ما زال بدوره، يحجم عن "إخراج هؤلاء من الملة"، وهم بالنسبة له ما زالوا على الدين، برغم الاختلاف معهم في نظرتهم ووسائلهم المتشددة، وتبريره أننا إن نحن "كفرناهم" صرنا مثلهم: تكفيريون، مع أن المقارنة هنا غير جائزة، إذ شتان بين جماعات تكفر الدولة والمجتمع، وتعمل سيوفها وخناجرها في رقاب العباد، وموقف فقهي يصدر بحق جماعة ضالة، تقارف من الأعمال، ما يجعلها خارجة على جميع شرائع الأرض والسماء... لا أدري كيف يمكن تفسير صدور فتاوى عن الأزهر الشريف، ضد كتاب ومفكرين تنتهي إلى "تطبيق زوجاتهم" لخروجهم على الملة، في حين ينظر إلى ما تفعله "داعش" بوصفه إثماً متروكاً للرحمن الرحيم.

التناقض البين في قول بعض الأئمة والحركات والمرجعيات الدينية أن إسلامنا بريء منهم ومن أفعالهم، وإحجامها في الوقت ذاته عن "تكفير" هؤلاء، هو الذي يبقي لهم هامش مناورة واسعة، ويسمح لكثير من الشباب الالتحاق بهم، بل والنظر إليهم بوصفهم "قراءة" من قراءات الإسلام المعاصرة، تحتل الخطأ والصواب، لكأننا نبحت في الفوارق بين الشافعي وابن حنبل... هذا أمر خطير إن صدر نوايا صادقة، وخبث إن اختبأت خلفه، مشاعر التعاطف، أو الإحساس بوحدانية المرجعية الدينية مع هذه الجماعات.

نفهم أن يقال ذلك عند الحديث عن الإخوان المسلمين وخلافهم من مدارس سياسية - دينية غير عنفية، ولكن أن يقال عن جماعة ارتبطت باسمها أفضع المجازر والقبور الجماعية، وعمليات التقتيل والتهجير وتقطيع الرؤوس والأطراف والسبي وجهاد النكاح، فذلك أمرٌ لا يمكن لنا أن نفهه، كما أن كثيرين من غير المسلمين من أبناء أوطاننا ومجتمعاتنا، يجدون صعوبة في تقبل صمتنا المتواطئ

حيناً، وفي نقدنا المتردد الخجول أغلب الأحيان، وانظروا إلى ما قاله إميل شمعون نونا، رئيس أساقفة الموصل للكلدان، حول موقف الأزهر الفاتر من "داعش" لكي تتعرفوا أكثر عن مخاطر إحجام المرجعيات الدينية عن القيام بدورها.

والحقيقة أنه لا يوجد من تفسير لهذا التقصير المؤسف، إلا بواحد من اثنين: إما أن القوم يخشون على أنفسهم بطش هذه الجماعات وابتزازها وإما أنهم يشتركون معها في كثير أو قليل من مواقفها ونظراتها... والنتيجة في كلتا الحالتين تراوح ما بين "المصيبة" و"المصيبة أعظم".

.....

\* الآراء الواردة لا تعبر بالضرورة عن رأي شبكة النبا المعلوماتية